

## الباب الثالث

---

مجرد ذكريات: الجزء الثاني  
مذكرات الدكتور رفعت السعيد

---

opbeikenen.com

## (١)

هذا هو الجزء الثاني من مذكرات الدكتور السعيد، وهو يحكى فيه عن تجربته فى ميدان مختلف تماما عن ميادين تجربته فى الجزء الأول، فهو فى هذا الجزء رجل مستول بكل ما تعنيه الكلمة من معانى، لكنه مع هذه المسئولية يحس بكثير من الاغتراب، فهو يحس بالاغتراب مع الزملاء فى داخل مصر، ومع الزملاء فى خارج مصر، كما يحس بالاغتراب مع كثير من الأجواء فى داخل المجتمعات الاشتراكية، وفى خارج هذه المجتمعات، بيد أنه يجيد الحديث عن كل هذه الاغترابات وموقفه المبدئى والنهائى منها.

وهو يقدم فى حديثه انطباعاته الذكية عن كثير جدا من محطات التيار اليسارى فى القرن العشرين، بيد أنه لا يفرض رؤى ثابتة بقدر ما يفتح للمجال واسعا للفهم والتأمل والحوار، وهو يفعل هذا لا عن عجز عن التقييم والتصنيف والتوظيف، لكنه يفعله ليرك لنفسه وعقله الفرصة كى تتأمل الحقائق والتائج فى ضوء هادئ من بصيرة قادرة على إدراك الحق والصواب.

## (٢)

بدلنا الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد على أنه عانى من أكثر من نمط متقدم من أنماط الاغتراب المركب إن جاز هذا التعبير، ولنبدأ فى تناول أكثر هذه الغربات أهمية وقسوة وتأثيرا فى فكر صاحبها، وهى غربته حين أصبح مستولا وممثلا لمصر فى مجلس السلام العالمى متعدد الجنسيات فإذا به فى نشاطه وأدائه يواجه مواجهة قاسية بما كان يمثل الاتحاد السوفيتى فى هذا المجلس يريد أن يمليه على توجهات هذا

المجلس فى نشاطه وفى مواقفه ، وإذا هو يعانى من كثرة احتكاك ذلك الرجل به وتربصه بتصرفاته وآرائه بل تحرشه بنشاطه ، وإذا هو يحس أن القرار الأصوب فى هذه الحالة هو أن يعود أدراجه إلى وطنه وأن يترك هذه المهمة لغيره .

ولنقرأ هذه العبارات المعبرة بصدق ودقة ووضوح عما اعترى تفكير صاحبها الدكتور رفعت السعيد فى لحظة حاسمة ، وعما وصل إليه من قرار صائب :

.....  
.....  
« . . . عدت إلى بيتى منهكا ليس من العمل وإنما من التوتر ، واستلقت على السرير بملابسى عدة ساعات مضت وأنا لا أفكر محاولا تهدئة نفسى . أتيت إلى هنا لأتعلم وقد تعلمت بقدر ما ، ونلت قدرا من المعرفة والعلاقات والخبرة ، لا حاجة بى إلى منصب أو مال ، أو سفريات ، نلت ما يكفينى ويزيد من مرارة التجربة ، وكنت وبصدق أخشى من تراكم المرارة لتتحول إلى حرب معلنة ضد السوفييت ، ومثل هذه الحرب كانت كفيلا بأن تحيل أى إنسان مهما كان صادقا ومخلصا فى توجهاته وثورته إلى معسكر الثورة المضادة» .

«ولم أكن أريد لنفسى مصيرا كهذا» .

«كذلك لم أكن أريد لنفسى أن أنكسر ، فأعيش منكسرا وفاقدًا قيمتى وقدرتى على قول لا» .

«نلت ما يكفينى» سيطرت على هذه العبارة ، لقد أتيت لأبقى ثلاث سنوات ، تسعة أشهر فقط عبأتنى بهذا القدر من المرارة ، فكيف سأجد وعاء يكفى لمرارات أكثر ، قلت لأرتب نفسى على انسحاب متوازن خلال ثلاثة أشهر ، بعد لحظة وجدت شيئا فى داخلى يسأل : لم ثلاثة أشهر؟ يكفى شهر واحد ، ومضت كرة الثلج تستدرجنى وتلح على ، البلد جميل ، كموسيقى ناعمة دائمة . العمل ممتع ، وأفق المعرفة لم يزل متسعا ، ورحلات إلى أقاصى الأرض ، وأماكن لم تكن لتحلم بأن تطلع عليها» .

«وتعود كرة الثلج تندحرج، يكفينى هذه المرارة، أنا فعلا أحب الاتحاد السوفيتى وأقدر جدا الحزب السوفيتى لكننى لوبقيت سانفجر، سأصعد إلى أعلى جبل لأصرخ باننى ضدكما، ولن أريد ذلك، لانفسى ولا لأصدقائى فى مصر».

«كنت أتق أن مرارتى مشروعة، لكننى كنت أكبحها، وألوم نفسى عليها، وأخاف على نفسى».

«وبقائى فى هلسنكى سيدفع بمرات أخرى فى حلقى، وأنا لا أريد ذلك، كما أننى لا أريد لنفسى أن تعتاد على الخضوع الدليل دون قدرة على قول الصواب، ولا أريد لضميرى أن يضر ويتأكل حتى يفنى، وتفنى معه أخلاقياتى، وأصبح مثل بعض من أرثى لهم».

«كنت فى هذه اللحظة بالذات كراهب يهرب بنفسه من الفتنة ليحفظ إيمانه من التبدد، ويقينه من الهرب».

«كان روميث مسافرا، وكنت أحل محله فى سلطاته، بما يمنحنى إمكانات إدارية ومالية واسعة».

«أمسكت بالتليفون، طلبت المسئول الإدارى فى بيته، قلت: ثمة طارئ ملح لسفرى للقاهرة، احجز لى مكانا على طائرة تغادر غدا، وأرجو أن تبلغ السكرتارية أننى سأقضى إجازتى فى القاهرة».

«الملمت أشيائى بسرعة حاسمة وكأنى أفرض على نفسى ألا تتراجع، وعندما أتى المساء كانت الحقائق مستعدة، وكأنها تستحنى على الرحيل».

«وفى الصباح كنت فى طريقى إلى القاهرة».

«قلت لنفسى: أنت فى إجازة فكر، تأمل، راجع نفسك، تشاور، ثم قرر».

«عدت إلى البيت، وصخب الحياة، ودفء الأسرة، لكن المرارة المريرة التى لم أستطع أن أبوح بها لأحد ظلت تحاصرنى».

«بعد أيام، وبعد مشاورات مع خالد محبى الدين وأصدقاء آخرين، أرسلت برقية اعتذار عن العودة لأسباب شخصية، مجلسنا يرشح فلانا كى يحل محلى».

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع آخر من الغربة عاناه في وطنه حين يجد نفسه وهو محرر في مجلة «الطليعة» عاجزا عن أن يتوافق مع رئيس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى الذى بدأ يأخذ عليه مضيه فى سبيل آخر غير سبيله .

وربما كان من الضروري أن نشير (قبل أن نتقل إلى حديث رفعت السعيد) إلى أن هذا الخلاف المتصاعد قد وقع حين كان لطفى الخولى يسعى لأن يكون بمثابة الرجل المصرى الأول فى مجلس السلام بديلا عن خالد محيى الدين ، بينما كان رفعت السعيد بكل ما أوتى من قدرة يعمل من أجل الحفاظ على مكانة أستاذه خالد محيى الدين ، ومكانه فى هذا المجلس .

ومن العجيب أن رفعت السعيد يعتبر خلافه هذا مع لطفى الخولى بمثابة وقوع الواقعة ، بينما يعلم أو يعلمنا أنه هو ولفطفى الخولى كانا مجردين من إرادة التغيير على نحو ما نرى فى نهاية ما يرويه :

«ثم وقعت الواقعة» .

.....

«كان لطفى الخولى أمينا للعلاقات الخارجية فى الاتحاد الاشتراكى ، وهو موقع مرموق ، خاصة فى نظر عديد من دبلوماسى البلدان الاشتراكية الذين كانوا يتواصلون مع مصر الرسمية فى أحيان كثيرة عبر قناة العلاقات الخارجية . ففى كل سفارة «اشتراكية» كان هناك مستشار مخصص للاتصال بالاتحاد الاشتراكى باعتباره الحزب الحاكم ، وكانوا هم أنفسهم ، فى أغلب الأحيان ، المكلفين بالاتصال بمجلس السلام ، ومن ثم كنت أتصل بهم ليفاجأ لطفى الخولى بهم وهم يرددون ذات الموقف ، وذات الحجج التى نردها فى جلساتنا معه . . أو مع غيره» .

«وذات يوم زاره فى مكتبه فى الاتحاد الاشتراكى فودور استفان مستشار السفارة المجرية ، وكان صديقا حميما لى ، وكنت قد أبلغته رسالة إلى حركة السلام المجرية

شارحا وجهة نظرنا، وتلقى فودور رسالة تطلب منه أن ينقل إلى لطفى الخولى أمل لجنة السلام المجرية فى الحفاظ على دور خالد محبى الدين فى حركة السلام، وكانت الرسالة مشفوعة بحديث كثير عن دور خالد محبى الدين العالمى، وعن تأثير الموقف منه على الموقف من المجلس المصرى للسلام».

«وخلال النقاش أسهب فودور فى تقديم حجج ومعلومات أفصحت عن أن ثمة مصدرا مصرىا حدثه عنها، وانتهاز لطفى الخولى الفرصة وثار ثورة ساخنة (ذات اللفظ الذى قاله لى فودور) وهدده أنه إذا لم يبلغه باسم «المصرى» الذى حدثه فى الأمر، والذى طلب إلى المجلس المجرى للسلام أن يتدخل، فإنه بصفته أمينا للعلاقات الخارجية سوف يوجه رسالة إلى الحكومة المصرية يبلغها فيها بقطع العلاقات والاتصالات بين الاتحاد الاشتراكى والحزب للمجرى».

«وارتعب فودور وأدرك أنه قد وقع فيما يجب ألا يتورط فيه، خاصة أن لطفى استخدم عبارات كبيرة، وأسماء كبيرة كالسادات، وما إلى ذلك، ولو وجه لطفى رسالة كهذه لانتهى فودور نهائيا. حاول الرجل الإفلات، لكن لطفى كان قد أطبق على عنقه، وأمسك به فى مقتل، وأخيرا اعترف فودور بأننى الذى حدثته فى الأمر».

«كان مكتب لطفى فى الدور الثانى من ذات المبنى الكبير للاتحاد الاشتراكى، وكانت مكاتب مجلس السلام فى الدور التاسع، وصعد فودور فورا ليعتذر، وينذرنى، وهو يتصبب عرقا، بأنه أبلغ لطفى بما دار بيننا».

«وأدركت أننى مقبل على معركة كنت أتوقعها منذ البداية».

«فأنا فى نهاية الأمر محرر بالطليلة التى يرأس لطفى تحريرها».

«وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى بالطليلة لأنسلم رسالة غاضبة من رئيس التحرير تتهمنى بالتقصير فى أداء واجباتى الوظيفية، وتحذرنى، وبألفاظ قاسية، من استمرار هذا التقصير، ورددت على الرسالة برسالة مهذبة، أو حاولت أن تكون كذلك، وإن كانت قاسية، ثم وبناء على نصيحة من إنجى رشدى أخذت الرسالتين إلى الأستاذ هيكىل قرأ وأبدى دهشته، ثم حكيت له القصة، ضحك وقال: «لا تهتم فأنا ال Boss هنا».

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع من أنواع الغربة التي واجهها في حياته اليسارية حين كان يفاجأ باستغلال القضايا الإنسانية واليسارية الكبرى استغلالاً نفعياً يخلق منها قضايا فرعية صغيرة وضيقة الأفق على نحو ما حدث، وما اكتشفه هو نفسه صدفة من المتاجرة باسم حزب «التجمع» في بيروت في أثناء عصر الحرب الأهلية اللبنانية :

« . . . ذات يوم كنت في زيارة لطلال سلمان في جريدة «السفير» .

«اشتكى (أى طلال) طويلاً من حاجزنا الذى لم يجد لنفسه مكاناً إلا عند مدخل «السفير» ، سألت : أى حاجز؟ قال : حاجز حزب التجمع .

- أى تجمع؟

- أنتم .

- نحن؟ صرخت فى فزع مندهش» .

«وإذ تملكتنى الدهشة توجهت على الفور عند المنحنى وجدت حاجزاً براميله مكتوب عليها «حزب التجمع الوحدوى - مصر» ، صعقت ، توجهت إلى الشباب الواقفين أمام الحاجز ، سألتهم مَنْ هم؟ سألوني مَنْ أنا؟ ذكرت اسمى ، البعض سمع عنه ، والبعض لم يسمع ، فهتت أن مسئولهم أو زعيمهم شخص مصرى اسمه «أبو خالد» .

«فى اليوم نفسه كنت عند أبو إياد حكيت له قصة هذا الحاجز قال : إنه تركه إكراماً لنا ، (ولم أصدق) وطلبت منه رفع الحاجز ، كتب قصاصة من ورق ، وفيما نشرب القهوة ونحكى عن أوضاع القضية ، أتى رجاله بشباب الحاجز ، وبعدهم أتوا بأبو خالد (فيما بعد علمت أنه عمل كناقش ثم اكتشف أن لعبة السياسة والحواجز والإتاوات وجمع التبرعات باسم التجمع أكثر ربحاً ، خاصة أن أسهم التجمع كانت عالية فى سماء بيروت وغيرها من المدن العربية بسبب رفضنا لكامب ديفيد ، وما نتعرض له من ضغوط ساداتية كنتيجة لهذا الرفض)» .

«أتوا بأبو خالد، كان واضحا أنهم أنقلوا عليه بمعاملة قاسية، ارتجف عندما وجد نفسه أمام أبو إياد، سأله: هل تعرف الأستاذ؟ وأشار إلىّ، ولم يعرفني الرجل، ونال عدة صفعات، لكنه في النهاية تحدث عن النضال، ورغبته في مواجهة العدو الصهيوني، قال أبو إياد: أنا أعرف دواء هؤلاء، وأمر بإرسالهم إلى الجنوب حيث المواجهة مع إسرائيل».

«وعلمت فيما بعد أنهم عادوا، وهاد أبو خالد ليعمل نقاشا».

(٥)

فإذا أتينا إلى موقف اليسار من قضية السلام والصراع العربي-الإسرائيلي وجدنا رفعت السعيد يعبر في مواضع كثيرة عما كان يشعر به من الغربة تجاه زملائه من اليساريين الذين لم يفهموا خطواته التي خطاها من أجل تواصل الحوار العربي-الإسرائيلي الداعي إلى استخلاص العون للقضية العربية في صراعها المرير مع إسرائيل والقوى الدولية المؤيدة لها.

وفي ذكاء شديد يحرص الدكتور رفعت السعيد على أن يقص علينا قصة يشوش بها باقتدار وهدوء على مبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات، وذلك من خلال الإيحاء الصريح بأنه هو نفسه كان قد عرف أن الاتصالات مع الإسرائيليين كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير، وهو معنى لم ينكره أحد من الرسميين المصريين حتى وإن لم يشبته، لكن رفعت السعيد، بما أوتى من قدرة، يسوقه كيما يدلنا على أن القنوات كانت متعددة، وأنه هو نفسه كان يعرف بوجودها منذ فترة وإن لم يصدق:

«... ذات يوم وفيما أندفع ظهر السبت إلى مدخل (فندق) الـ «كاساديللا كولتورا» كان ثمة شخص يجلس بهدوء يرتدى قبعة عالية، ويمسك بيده عصا هو ليس بحاجة أن يتكلم عليها (أشياء تلفت انتباهك، كي تتعلق بها وتنسى ما هو مهم من أشياء مثل الشكل والملامح وغيرها)، نظر إلىّ دون اكتراث، وظل جالسا مكانه، في فترة الاستراحة كان لم يزل مكانه، فقط زاد سيجارا ضخما دخانه يعبث برائحة المكان. سألت ديناפורتي (إيطالية عاشت في مصر طويلا، وكانت مكلفة بالأعمال الإدارية

الخاصة بالمؤتمر) عن هذا الرجل، أجابت بدهشة: إنه يتظرك.. . سألت عنك.. . وجلس.. . وتصورت أنك تعرفه وتنتظر الانتهاء من الجلسات لتخرجاً معاً، ذهبت إليه قلت: أنا فلان، قال: أعرف. تصاعد مزيد من الدخان من سيجاره، أحكم القبعة العالية وكأنه يلفت نظري إلى وجودها، أمسك بالعصا وانحنى بي في أحد الأركان.

«قال دون أن يمنحني فرصة المقاطعة: «أنا من إسرائيل.. . أرجوك احمل الرسالة التالية إلى الرئيس السادات.. . لماذا توقفت الاتصالات؟ نحن جاهزون لمواصلتها». (كانت العبارة متقنة ككذيفة واحدة، تنطلق دفعة واحدة، حيث لا تتيح لك فرصة القول بأنك لست ممثلاً للحكومة ولا للرئيس، أو أن تسأل من أنت؟ أو عن أي اتصال تتحدث؟».

«قال العبارة وانتهز فرصة ذهولي ومد يده بالسلام وذهب».

«طوال الليل، وطوال رحلة العودة لهلسنكي كنت أستعيد الشكل والملامح والعبارة وأفكر.. . لماذا أنا؟ وهل الإسرائيليون سذج إلى هذا الحد؟ إلى درجة أن يتصوروا ببراءة أنني يمكن أن أحمل هذه الرسالة؟ وإذا كانت ثمة اتصالات، فلماذا لم يلجأوا إلى قنواتها؟».

«وخيلٌ إلى أن البعض الذي سمع كثيراً عن مؤتمر يفتش عن سلام عادل عبر عمل وتواصل شعبي، أراد أن يبلغنا، وببساطة، أن العلاقات الرسمية بدأت، وأن السلام الرسمي ممكن، وربما أيضاً أنه لا مبرر لكل ما تفعل».

«تكاثر الاحتمالات ولم تنزل تكاثر برغم فوات الزمان، وثبوت الرؤية، والتأكد من أن العلاقة كانت متواصلة في ذلك الزمان».

«قال أحد المتحمسين في صناعتها عندما حكيت له هذه الحكاية، ربما كان طرف إسرائيلي ما قد أراد الضغط علينا بتسريب معلومة عن الاتصالات السرية إليكم».

«المهم وصلت هلسنكي مساء الأحد، صباح الاثنين كنت أشرب القهوة مع السفير المصري جمال بركات في مكتبه بالسفارة، حكيت له القصة كما هي، استعادها مرتين، صمت قليلاً، ولعله استعاد كل خبرته في السلك الدبلوماسي ثم وقف بقامته

القصيرة وقال: كصديق أنصحك ألا تدخل نفسك فى عش الدبابير، انس الموضوع وكأنه لم يحدث، وأنا من ناحيتى سأنساه ولن أبلغ القاهرة بشيء».

«ومع تواصل الحوار قلت: إذا أخفيت الموضوع فقد يتهمنى البعض بأننى اتصلت بالأجهزة الإسرائيلية سرا، قال: فى هذا عنك حق، واتفقنا أن يبلغ القاهرة برسالتى».

«وبعد يومين تلقيت مكالمة من خالد محبى الدين . . السادات غاضب جدا (ربما لأنه أحس بتداخل الخطوط، أو أنه لم يفهم باعث الإسرائيليين على مثل هذا الاتصال)، وأن د. حافظ غانم أمين عام الاتحاد الاشتراكى قد أصدر قرارا بفصلى من عضوية الاتحاد بتهمة الاتصال بالعدو الصهيونى (ألقى هذا القرار بعد أيام، فقد كان مجرد إنذار بالأفعال مرة أخرى وكأنى فعلتها فى المرة الأولى)».

«ولم أزل أستعيد فى ذاكرتى هذه الواقعة، دون إمساك بحقيقة بواعثها».

#### (٦)

ويعترف رفعت السعيد أنه بسبب غربته مع اليسار المصرى وتوجهاته المتعددة كان قد اضطر فى بعض الأحيان إلى أن ينشر كتاباته باسم مستعار حتى لا يصطدم مع التيار الذى يتبنى إليه:

«... وأثمرت جلسات السكرتارية كتابا من أحب ما كتبت، قرأه خالد محبى الدين فى واحدة من زيارته لهلسنكى لحضور اجتماعات رئاسة المجلس، أعجب بالكتاب، لكنه تعجب من رغبتى فى نشره، فسوف يشير زويدة ليس ضدى شخصيا فحسب، ولكن ضد تيار بأسره، وربما ضد المجلس المصرى للسلام أيضا، وهكذا اتفقنا على أن يصدر كتاب «تأملات فى الناصرية» باسم سرى «محمد فريد شهدى» (اسم مركب من «محمد فريد» الزعيم الوطنى الأقرب إلى قلبى، وشهدى عطية الرفيق المحبب إلى قلبى أيضا)، وقد نشرت العديد من المقالات والدراسات فى مجلة «دراسات عربية» بهذا الاسم، ونشرت «دار الطليعة» (بيروت) الكتاب، طبعته مرتين بالاسم السرى، ثم تجاسرت (بعد أن تغير الزمن بعض الشيء) فنشرته باسمى الحقيقى».

ويتحدث الدكتور رفعت السعيد عن غربته مع بعض الفصائل الفلسطينية التي لم تكن حريصة على ذلك التقارب الذي بدأ بين حزب التجمع المصري والرئيس مبارك في بداية عهده، بينما كانت هذه القوى والفصائل الفلسطينية والعربية لاتزال حريصة على استمرار قطيعة اليسار عن رموز الدولة المصرية :

« . . . كان رحيل السادات بداية لمشكلات جديدة مع البيروتيين الذين كان البعض منهم يتصور أنه يوجه رياح الكون ويحدد اتجاهاتها، فكثير من قادة المنظمات الفلسطينية تصور أن واجبنا تأييد اغتيال السادات (وقد أعلننا إدانتنا للاغتيال كمبدأ، وإدانتنا لسياسات السادات)، وتصور البعض أنها الفرصة لتأكيد سياسته الخاصة بالعنف المسلح، وأنها الفرصة لمواصلتها، حتى يتم إسقاط النظام، والأهم من ذلك كله إسقاط كامب ديفيد» .

«فإذ لاحظوا أن الرئيس الجديد قد استقبل زعماء المعارضة، وإذا لاحظوا هدوءاً في لهجتنا، مع إصرارنا على رفض السياسات الساداتية (إلى درجة أننا طالبنا الجماهير بأن تقول «لا» للرئيس المرشح لأنه أعلن التزامه بسياسات سلفه) فقد صبوا هجوماً عنيفاً علينا امتد من الصحف إلى البيانات، وشارك فيه لبنانيون مثل محسن إبراهيم الذي ألقى خطاباً حاداً هاجم فيه، وبالإسم، تهادن خالد محيي الدين ورفعت السعيد، لأننا قبلنا مقابلة الرئيس مبارك، وكأنه كان من المفترض أن نرفض» .

«وفي إطار هذا المناخ المكهرب وصلت إلى بيروت، وفور وصولي انتشرت شائعات افترشت مساحات كبيرة من صحف كثيرة، إنني قادم للوساطة بين كامب ديفيد المعدلة (مبارك) وبين أبو عمار (وكان هذه الأطراف كانت تفتقد الصلة فيما بينها)» .

«وفي تحدٍ للأقارب والهجمات ضد حزب التجمع، اقترحت أن أتحدث في مؤتمر صحفى، وقام الصديق زياد عبد الفتاح مدير وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» بالدعوة للمؤتمر» .

«ولاحظت (للأسف) أن أكثر الذين أتوا ودفع بهم إلى المؤتمر ليوصلوا أكثر الأسئلة الهجومية حدة، كانوا من أطراف أو شوائب اليسار المصري المختلفة، المهاجمون

الأصليون تستروا، أو تخرجوا (بسبب صداقات قديمة ولا بد لها أن تستمر)، أو لم يرغبوا في مجابهة تفسد المودة الظاهرية مع حزب مصرى هو الأكثر نضالية ضد كامب ديفيد» .

## (٨)

وما هو رفعت السعيد يحرز نجاحا ساحقا في مواجهة هذه التيارات، ويستخدم بلاغته وقوة حجته وقدرته على الجدل في مواجهة علنية من أجل الانتصار للخط السياسى الذى سار فيه حزب التجمع منذ ذلك الحين :

«وانهمرت الأسئلة، أو الهجوم الذى تمت صياغته في صورة أسئلة تتحول عادة إلى خطب ملتعبة بحماسة غير منضبطة. الإدانات تراكمت بلا حصافة ولا تردد، وقررت أن أستخدم الأسلحة الثقيلة في مواجهة الأسئلة الثقيلة. كانت ردودى عنيفة وحادة، ومع العنف فى الإجابات ساد الهدوء، فقد شعر السائلون أن هجوما مضادا يمكنه أن يضعهم فى حرج» .

«شاب مصرى قال إنه يسأل نيابة عن مجلة «الهدف» (الجبهة الشعبية) تحدث ربع ساعة أو أكثر لیتهما أننا كنا دوما متهادنين مع الحكم، خاصة مع السادات، وأن الجماهير المصرية كانت جاهزة لتحرك أكثر حدة لولا أن «القيادة» (التي هي نحن) تخلت عنها وتركتها ضائعة، وكانت إجابتى بسيطة: «أين كنت أنت وزملاؤك؟ تركتم الجماهير الجاهزة للثورة وأتيتم إلى بيروت خوفا من التصادم حتى بالكلمات أو حتى الهمس بها؟» .

«وصمت المسكين . . وصمت كل المصريين . . وساد المؤتمر الصحفي هدوء، فالفلسطينيون لا يريدون توريط أنفسهم» .

«لكن تحييد المدفعية المصرية أجبر الآخرين على الحديث، وتحدث شاب من مجلة «الحرية» (الجبهة الديمقراطية) وتحدث بأسلوب نظرى معقد عن دور الفرد، ودور النظام، ويليخانوف ورؤيته لدور الفرد، وانتقادات لينين لها، وخلص من ذلك إلى فكرة تقول: إن النظام العام يملئ إرادته على الحاكم، وإن مبارك أراد أو لم يرد هو

مضطرب لأن يصبح ساداتا آخر، بالسياسات نفسها، والمنهج نفسه، والأسلوب نفسه» .

«وتحدثت باختصار عن الفكرة النظرية التي فهمت خطأ حول دور الفرد، وعن أن له دورا ما، خاصة في دول العالم الثالث، سألته: هل ستالين فعل مثلما فعل لينين؟ الحزب هو الحزب، فلم لم يفرض إرادته على الفرد الآخر؟ ثم أقيت إليه بقبلة لم يكن يتوقعها قلت: هل نايف حواتمة مثل ياسر عبد ربه؟ وهل كل منهما مثل الآخر طالما أن الحزب سيملى إرادته الواحدة التي لا تتغير بتغير الأفراد؟» .

«وكان زعيما الجبهة الديمقراطية التي تحدث هذا الشاب باسمها يخوضان صراعا مريرا ومكتوما ومتكما عليه فيما بينهما، وكنت آتيا لتوى من مقابلتين منفصلتين مع كل منهما استمعت فيها إلى اتهامات عديدة متبادلة» .

«سقط السؤال فوق رأس الشاب المسكين، ولم يجد إجابة» .

«وأيقن الحاضرون أنه ليس من السهل افتراسي، فأصبحت الأسئلة أهدأ، والأسلوب أنقى، ومن ثم كانت الإجابات أكثر هدوءا» .

«وبعد هذا المؤتمر الصحفي هدأت بيروت، سواء اللبنانية أو الفلسطينية، وصمتت أصوات الهجوم والتهجم ضد حزب التجمع» .

(٩)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على أذ أنواع الغربة التي عاشها حين وجد هو وأقرانه من مؤسسى منبر (ثم تنظيم ثم حزب) التجمع الوطنى التقدمى الوحى صعبية مذهلة فى الحصول على عشرة توقيعات لعشرة من أعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى من أجل استكمال الإجراءات الخاصة بقيام هذا المنبر، ونحن نرى درجة التشويق فيما يرويه رفعت السعيد عن هذه الوقائع عالية إلى حد مثير، وقبل هذا فإنها تقدم تقييما واضحا لرموز يسارية معروفة من وجهة نظر صاحب المذكرات

.....  
.....

«لم يكن الأمر سهلاً».

«فمنذ اللحظة الأولى قفزت صيحات متطرفة تستنكر فكرة العمل في إطار حزب السلطة (الاتحاد الاشتراكي)، وأخرى تستنكر القبول بشروط برنامجية، لكن التيار الأكثر تعقلاً في اليسار قبل بالفكرة ليس باعتبارها منحة، وإنما كمعركة، نصصح مسارها وأدواتها وتوازنها عبر الممارسة».

«وحيث تراكمت صيحات اليساريين المتطرفين (العمال الشيوعى، و ٨ يناير) في سلة الرفض للفكرة، تمحورت مجموعة أخرى حول عبد الرحمن الشرقاوى سميت بمجموعة روز اليوسف (صلاح حافظ- حسن فؤاد- أحمد حمروش)، ومعهم سعد كامل، ومحمود توفيق».

«ولم تكن هذه المجموعة راضية عن تولى خالد محيى الدين رئاسة المنبر، كما لم تكن راضية عن التوجه الذى بدأ فى التبلور عبر المشاورات الأولى، والذى تمثل فى أن المنبر مفتوح لكل القوى اليسارية والتقدمية، أى هذا التوجه الذى عبر عن نفسه بعد أن نضج فى فكرة المنبر المتعدد التيارات. والغريب أن هذه المجموعة، وهى ذات ميل سياسى معتدل للغاية. ويعيد تماماً عن التشدد، كانت ترى ضرورة أن يقتصر تشكيل منبر اليسار على العناصر الماركسية (ربما لأن ذلك يفسح مكاناً للجميع فى القيادة، بينما المنبر المتعدد التيارات يفرض على الماركسيين أن يمثلوا بعدد محدود جداً فى القيادة)».

«لكن مسيرة تأسيس المنبر تواصلت».

«وعقدت الجلسة الأولى للتشاور فى بيت حسين فهمى، وحضرها فيما أذكر: خالد محيى الدين- حسين فهمى- د. فؤاد مرسى- د. إسماعيل صبرى- د. إبراهيم سعد الدين- لطفى الخولى- أبو سيف يوسف وأنا».

«وفى هذا الاجتماع طرحت فكرة المنبر المتعدد التيارات، ولقيت قبولا من الجميع، وتوالت الاجتماعات بعضها فى بيت د. فؤاد مرسى، والأغلب فى بيت حسين فهمى، واتسعت دائرة الاتصالات، وأبلغنا د. إسماعيل صبرى مبتهجا بأن د. يحيى الجمل (قومى عربى) قد وافق على الانضمام إلينا، وقد أشار بدوره بالاتصال بالدكتور

محمد أحمد خلف الله ، الذى رحب هو أيضا بالفكرة وقبل الانضمام إلى المنبر ، وقام خالد محيى الدين وأنا بزيارة لكمال رفعت ، ولطفى واكد فى دار النشر الخاصة بهما ، وكان لطفى واكد متحمسا ، وكذلك كمال رفعت ، لكن كمال رفعت كان يراهن على التانى حتى يجمع العناصر الناصرية الشابة التى كانت تكثر من الصياح والحركة بأمل أن يصبغ المنبر بصبغة ناصرية . والصبغة الناصرية تعنى عندهم أن يكون رئيسه ناصريا .

«وفيما انهمك البعض فى إعداد مشروع البرنامج ومشروع اللائحة ، كان البعض (خالد محيى الدين وأنا) يبذل جهدا مضنيا فى استيفاء شرط التوقيعات العشرة من أعضاء مجلس الأمة ، أو اللجنة المركزية» .

«وفى البدء كان هناك أربعة توقيعات : خالد محيى الدين - د . فؤاد مرسى - أبو سيف يوسف - لطفى الخولى» .

«اتصلت بزكى مراد الذى سافر بالطائرة إلى أسوان ليعود بتوقيعين : عبد الهادى يعقوب ، وعبد الستار ميرغنى (أحدهما عضو مجلس أمة ، والثانى عضو لجنة مركزية)» .

«ويبقى أربعة» .

(١٠)

وهنا يأتى حديث رفعت السعيد المنحاز بوضوح ضد توجهات القطب الناصرى والبرلمانى كمال أحمد وتصرفاته :

« . . . وبدأت مساومات مريرة ومضنية مع مجموعة من الشبان الناصريين كان يمثلهم فى التفاوض كمال أحمد ، وعدد آخر من الشباب الأصغر سنا كانوا يبالبغون فى قوتهم ، وكنا نعلم أن لديهم توقيعين فقط ، لكننا بحاجة إلى هذين التوقيعين» .

«كانت ساقية المناقشات تدور بلا توقف ، وتحولت إلى صداد مرهق ، الكلام السياسى كثير لكنه فى نهاية الأمر ينحصر فى أن كمال أحمد يشترط أن يكون رئيسا للمنبر ، بزعم أن الشارع السياسى لن يقبل زعيما ليسار غير ناصرى (كان يكرر بلا ملل ولا تردد يريد ناصريا ولو كان لوحا من خشب)» .

«كان قادة الناصريين المعتمدين في السجن، وكان كمال رفعت يحاول جهد طاقته أن يحتوى هؤلاء الشبان دون جدوى، بل إن كمال أحمد كان يحرضهم ضده خوفاً من أن يصبح كمال رفعت هو المتحدث باسم الناصريين، وبدأ هؤلاء الشبان في ترويج فكرة أن كمال رفعت اختلف مع عبد الناصر، ومن ثم فهو ليس ناصرياً».

«وعندما استطالت الاجتماعات إلى ما لا نهاية، واستطالت الخطب إلى حد الملل، اكتشفنا أن هؤلاء الشبان يحاولون استدراجنا إلى حافة اليوم المحدد للاجتماع المشترك الذي سيعلن إقرار برامج المنابر، معتقدين أننا إن وصلنا إلى الحافة وأصبح الخيار ما بين منبر بزعامة كمال أحمد أو لا منبر على الإطلاق، فإننا سنرضخ لزعامة كمال أحمد».

«ولهذا قررنا أن نواصل اتصالاتنا لتجميع بقية التوقيعات سرا، وأن نمد لهم حبال المناقشة لعلهم يقتنعون».

«وبالفعل وفيما كان النقاش ممتداً معهم ليستعيد ذات الكلمات وذات الحجج، كنت في غرفة أخرى مجتمعاً مع ثلاثة هبطوا علينا من السماء عاملان وفلاح كانوا قد حاولوا تأسيس منبر عندما فتح الباب على مصراعيه، فلما أغلق أتوا إلينا».

«محمد عبد السميع - على طلخان - محمود عيد، والثلاثة أعضاء في اللجنة المركزية، رحبنا بهم، وقد حاول محمد عبد السميع في البداية أن يبدو مهتماً بمشروع البرنامج مطالباً بإضافات متعلقة بالشريعة، وقد سويت معه الأمر بسهولة، وبعد مناقشات هامشية وقع الثلاثة وأصبح الموقعون تسعة».

(١١)

ونأتى مع رفعت السعيد إلى الحلقة الأخيرة في المسلسل المشوق المتميز الذي صور به بدقة ومهارة نشأة حزب التجمع حين كان لا يزال منبراً، وقد انتهت هذه الحلقة نهاية سعيدة بانضمام قبارى عبد الله إلى الموقعين ليكونوا عشرة، ولينشأ منبر اليسار:

«وبقى واحد».

«وخيل إلى أن الأمر قد وجد حلاً سعيداً، فهناك أحمد طه (عضو مجلس الأمة) ولا بد أنه سيوقع».

«وببساطة اتصلت به تليفونيا لكن إجابته كانت غير مشجعة، أطلال في الحديث، وتحدث عن شكل المنبر وتكوينه، وأخيرا وعندما علم أن لدينا تسعة توقيعات، وعد بأنه إذا توقف الأمر عليه فإنه سيوقع».

«متى؟».

«أجاب: في الاجتماع المشترك».

«ولم يكن بالإمكان المغامرة في أمر كهذا أن تذهب إلى الاجتماع بتسعة توقيعات بأمل أن يوقع لك العاشر في الاجتماع ذاته، فماذا لو حضر متأخرا، أو لم يحضر أصلا، أو استجد ما جعله يتحفظ؟».

«وقررنا أن نبحث عن توقيع عاشر».

«كل ذلك والنقاش ممتد، ساخن، وطويل، وعمل مع مجموعة الشباب الناصري، وكلما اقترب الوقت تصوروا أننا سنركع أمامهم ونقبل ما يشترطون، ومن ثم كانوا يزدادون تشددا».

«وتذكرت قبارى عبد الله (عضو مجلس الأمة)، وأسرعت إلى عبد المنعم القصاص الذى كان على علاقة حميمة به، وأتى قبارى، كنت أراه لأول مرة، كان بسيطا وسمحا وصريحا، قال إنه يريد أن يستشير البعض».

«واستعار سيارة ليسرع إلى الزيتون، لم يكن هناك وقت كاف، فقط بضعة ساعات على الاجتماع المشترك، وأسرع إلى الزيتون ليستشير صديقا له هو محمد عباس فهمى، وأشار صديقه ألا يوقع».

«ورجع الرجل مهموما».

«لكن الأمر لم يحتج إلى نقاش طويل معه».

«فقط قلت له بوضوح إن توقيعه ضرورى كى يقوم منبر علنى للسياس».

«وساعتها قبل أن يوقع راضيا».

«اكتملت التوقيعات العشرة».

«دخلت إلى ذات الغرفة التي شهدت المباحثات المطولة مع الناصريين، كان خالد محيي الدين يبدو منهكا من فرط ما صبر واحتمل، مررت إليه ورقة صغيرة «قبارى وقع واکتملت التوقيعات العشرة»، عاد الصفاء إلى ابتسامته، وتفاهمت أعيننا أن نواصل النقاش».

«لكن أسلوينا في النقاش اختلف قليلا، نحن الآن لسنا بحاجة إلى أن نخضع لشروط غير مقبولة، وفيما النقاش ممتد خرج كمال أحمد، واستدعتنى السكرتيرة لأمر مهم، وكان الأمر المهم أن كمال أحمد يريد أن يتحدث معى منفردا، وسرنا معا عبر الردهة الطويلة في الدور التاسع من مبنى الاتحاد الاشتراكي (حيث مقر للمجلس المصري للسلام، وحيث أجرينا أغلب مباحثاتنا واتصالاتنا). اتخذ حديث كمال أحمد مذاقا خاصا، وعبر التفافة طويلة، ومبهمة في أغلب الأحوال، حاول أن يفهمنى أنه ليس ناصريا بالمعنى المفهوم، لكنه يميل إلى الماركسية، وأنه على علاقة خاصة جدا ببعض الماركسيين في الإسكندرية، ولعله قد تصور أنه بذلك يمكنه أن ينال منى ما يريد».

«ولم أنطق، استمعت فقط دون تعليق».

«وكانت الساعات الباقية على الاجتماع المشترك قد تآكلت، ولم يتبق سوى بضع دقائق تكفى كى يهبط خالد محيي الدين بالأسانسير ليصل إلى حيث ينعقد الاجتماع المشترك فى المبنى ذاته».

(١٢)

نتقل بعد هذا كله إلى طراز آخر من الاغتراب يمثله الاغتراب الذى أحس به صاحب المذكرات أمام القوة التى أصبحت بمثابة المهيمنة بمفردها على مقدرات السياسة الدولية فى عصر أحادية القطب !!

ونحن نقرأ لرفعت السعيد حديثا مختلفا عن الحياة الأمريكية، وهو حديث مختلف فى كل مكوناته، مختلف فى معطياته، ومختلف فى بداياته، ومختلف فى نهاياته، ومختلف أيضا فى موضوعاته.

ها هي الفرصة نتاح لرفعت السعيد لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا هو على حد ما يروى لنا يفاجأ بما اكتشفه في نفسه من صعوبة أو استحالة تقبله لحديث الأمريكيين عن ديمقراطيتهم :

« . . . ومنذ وقوفك على الخط الأصفر الفاصل بينك وبين رجال الجوازات الأمريكي ، تجد كل شيء ، وكل شخص ، وهو يلح بشكل مفتعل ، ومنفعل ، على الإيحاء لك بأنك في عالم آخر ، فإن لم تتقبل الإيحاء برضاء (ورضا) مستسلم ، فإنه يخزك كي تتلعه مرغما» .

«وثمة مرافقان رجل وامرأة ، أبيض وسمر ، أو بالدقة سوداء ، وتظل هذه السمراء تلح منذ الهمسات الأولى على أنها شيء مختلف ، مضطهدة ليس لأنها زنجية ، وإنما لأنها يسارية ، لأنها كانت على علاقة وثيقة بأنجيلا ديفيز ، وقد يكون هذا صحيحا ، لكن المفروض والمفترض أن تتقبله بتشكك يستشعر الشوك في كل كلمة ، والشك في كل تصرف» .

«واكتشف أننا مجموعة : فلبيني (صحفي) مالطي (نائب وزير الخارجية) أفغانى (رئيس وكالة الأنباء الأفغانية التابعة للمجاهدين طبعاً) وأردنى (سفير)» .

«جلسنا في محاولة للتعارف ، انتفض الفلبيني دون توقع ، ودون مناسبة ليصرخ في وجه الأمريكيين : «لماذا تبقون في بلادنا؟ لا نريدكم ولا نريد قواعدكم» ، لم يعلق على حديثه أحد ، لكن شيئاً ما حدث ، فقد كان في اليوم التالي هادئاً . . . سعيداً . . . ولم يثر قط موضوع القواعد مرة أخرى» .

«وهدف الإبهار يبقى متسلطاً ، فهم يتعمدون أن يتنقلوا بنا كل يوم عدة مرات من قاعة لأخرى ، ومن فندق لآخر ، رغم أنه بالإمكان مواصلة اللقاءات في قاعات الفندق الذي نقيم فيه» .

(١٣)

ويحرص رفعت السعيد على أن يضرب الديمقراطية الأمريكية في مقتل حين يصفها بأنها ديمقراطية تقوم على التلقى فقط (!!) :

«ومنذ المرة الأولى لاحظت أن الديمقراطية الأمريكية تقوم فقط على أساس التلقى، تعد الندوات إعدادا متقنا، القاعة مغلقة بالإبهار. . المقاعد وثيرة. . مشروبات ومأكولات بلا نهاية. . محاضرون أذكاء يتسللون عبر الموضوعات بكفاءة، ويغلفون كل شيء بخفة دم غير مفتعلة، فتجد نفسك تبسم، ثم تضحك، وتستمع وتستمع، وتفهم في آن واحد، والزمن محسوب بعناية فائقة، فما أن ينتهي آخر المتحدثين حتى تكتشف أن الوقت قد داهمنا، وأنا مضطرون إلى القفز إلى مكان آخر، ولا يبقى أمامك سوى أن تتلغ تساؤلاتك أو تعليقاتك».

«أدركت اللعبة من المرة الأولى، وعندما تكررت أيقنت أنها مقصودة، وقررت أن أشعرهم أنني لست ساذجا إلى هذا الحد، حاولت أن أناقش الموضوع مع المألطى فقال: أنا هنا كي أتعلم. أريد أن أعرفهم جيدا وليس لدى ما أقوله، والأردني قال: أنا سفير ولا أريد تعقيدات قد تدمر مستقبلتي».

«واعتمدت على قدرتي على المباغثة، أخذونا إلى قاعة رائعة واصطف على المنصة متحدثون من هيئة المعونة الأمريكية، بعد ساعتين بالضبط لدينا موعد مهم في الكونغرس، كل منا مع بعض المختصين أو الأعضاء المهتمين بمنطقته».

«مضت ساعة ونحن نسمع، ونستمع، ونضحك. نتناول نسكافيه أو شاي أو حلويات. ساعة ونصف ساعة ولم يبق سوى وقت قصير، ومتحدث لم يتكلم بعد، مكلف بأن يستهلك كل ما تبقى من وقت، وقبل أن ينطق كنت أتحدث، قلت: لسانا طلبة في مدرسة ثانوية نستمع ولا نناقش، أنا لدى أسئلة وتعليقات».

«قال رئيس المتحدثين (وهو زنجي) بقرف: بعد أن تنتهي من الحديث، قلت: ستتهون بعد أن ينتهي الوقت».

(١٤)

عند هذا الحد يجد رفعت السعيد (بما تمرس به من قدرة على الجدل) أن فرصته لتحقيق الفوز قد حانت، وها هو يلتقط الفرصة (ولا نقول يتهزها) ويبدأ في رواية ما فعل وما أمكنه به أن ينتصر على دعاوى الأمريكيين:

« . . . ولم أتركه يقاطعنى ومضيت قائلا: على أية حال أنا لست مهتما كثيرا بالأرقام التى أوردتموها وتحديثم عنها، وحتى لم أتابعها (وقعت هذه العبارة عليهم وقع الصاعقة) فقد كنت مشغولا بأمر آخر يقلقنى، ويقلقنا جميعا فى مصر، هل ثمة دور تجسسى تقوم به منظماتكم؟ والذى يدفعنا إلى ذلك الحقل من الشكوك هو إصراركم على التغلغل فى أعماق المجتمع، تذهبون بأنفسكم إلى القرية والحى، فلماذا؟ (الصاعقة أشعلت نارا فى القاعة، خاصة المنصة، لقد تعددت أن أقذف بحجر ضخمة فى زجاج الحديث حتى أستخدم فرصة الدقيقة التى انتزعتها بأقسى استخدام ممكن» .  
«ووجم الجميع» .

«كان الأردنى ينظر ببسمة مأكرة، والفلبينى ربما يتساءل لماذا لم يطوعونى كما طوعوه؟ لكن سؤالى رغم وضوحه ظل صامتا» .

«أما من على المنصة فقد انحنوا مثل قضاة الأفلام يتهامسون، وأمسك الزنجى بالميكروفون وقال: واضح أن هناك سوء فهم، سواء فى الترتيب أو فى العلاقة، فالمقصود من هذه الندوة أن نشرح نحن دورنا، أما أسئلة سياسية كهذه فيمكن الحديث عنها مع مسئولين آخرين» .

«فقلت مقاطعا: أنتم إذن تتعاملون معنا على أساس أننا طلاب فى مدرسة ثانوية، نستمتع ونسكت، فإذا كانت هذه هى الديمقراطية الأمريكية فقد عرفتها، لكننى لا أقبل التعامل على أساسها، وأنسحب» .

«وتدارك مدير المشروع (المستول عن رحلتنا) الأمر وقال: يبدو أن ثمة خطأ فى الترتيبات، فالبرنامج مشحون إلى درجة أنه لا يكفى للنقاش، وسنكون سعداء لو أمكننا أن ندير حوارا معكم» .

(١٥)

ويسرع رفعت السعيد فى روايته ليثبت دلائل نجاحه فى خطواته التى أريك بها الأمريكيين أصحاب ديمقراطية التلقين:

«وابتداء من اليوم دعيت منفردا لإلقاء محاضرات في جامعة «جورج تاون» ورحبت بذلك، وانفردوا هم بالآخرين».

«لكن الأمر لم يكن كله ساذجا إلى هذا الحد، ففي البتاجون (حيث يتجمع أكثر الأمريكيين خبرة وذكاء في اعتقادي) دار حوار عميق وصاخب واستدام بقدر ما استطعنا نحن، وكذلك في الكونجرس».

(١٦)

ولا يهمل رفعت السعيد الفرصة السانحة في أحداث مذكراته وسياقها حتى يتحدث عن حقيقة مشاعر الأمريكيين تجاه السوفييت، وما كانت تعنيه حرب الكواكب بالنسبة للأمريكيين:

«وفي ندوة مهمة عقدت في بوسطن عن «أمريكا في مرحلة انتقال الرئاسة»، وفي وزارة الخارجية. . . في جلسة طويلة ومنفردة مع المسئول عن ملف مصر، ثم لقاء جماعى صاخب مع مَنْ أسموه مسئول «ملف السلام والتعايش السلمى»، غرفته مغلقة ببوسترات تدعو للسلام، تدهشك بكثرتها وإصرارها، وكأنك جالس في صالة مقر مجلس السلام العالمى في هلسنكى، لكن المحتوى مختلف، بدأت أنا الحديث عن مشروع حرب الكواكب، تحدث الرجل بطلاقة مَنْ يتقن الموضوع، ويتقن الحديث عنه، وأكد أن مثل هذا المشروع «وقائى»، وأن أمريكا لا تنوى حال استكمالها أن تستخدمه، قلت: تنفقون عشرة مليارات (هو ذكر هذا الرقم) ولا تستخدمونه، وماذا لو لاحقكم السوفييت وصار صراع هناك فى الكواكب؟ قال بهدوء الواثق: هم لا يستطيعون، اقتصاديا، قلت: فإن لم يستطيعوا؟ قال بذات الهدوء: فليركعوا».

«ضحك الأفغانى وقال بإنجليزيتة المميزة: دعوهم لنا نحن نركعهم، فرد الأمريكى: لا، لا، نحن نريد أن نركعهم تماما».

«قلت بجلل: والعالم، فقال بهدوء: العالم سيكون أفضل وهم راکعون، واستدرك قائلا: هذه وجهة نظر شخصية، وأعرف أنك ضدها، لكن لا بأس فأنت تحب الحوار (أسلاكهم متصلة جيدا، فقد عرف بموضوع إلحاحى على الحوار)».

(١٧)

ويتطرق رفعت السعيد إلى نمط آخر من أنماط اللقاءات التي فرض عليه حضورها في أمريكا، وهو يجيد تقديم صورة مشوهة من تفكير الأمريكيين المتغطرس تجاه مصالحي الطبقات العاملة:

«لم تكن اللقاءات كلها من هذا الصنف، فعندما زرنا مقر «اتحاد العمال» كان المتحدث ساذجا بصورة أدهشت الجميع، سألته (وكنت من يسأل في أغلب الأحيان، فقد كنت كما قال مدير المشروع وهو يودعني الغلطة الوحيدة): ماذا تفعلون للمتعطلين؟».

«قال: نحن اتحاد للعاملين وعندما يفقد العضو عمله فإنه يفقد عضويته».

«وقلت: وماذا عن الألوفا الذين يقيمون في الشوارع بلا مأوى؟».

«قال: معلوماتي أن هناك (آلأفا) من المساكن جاهزة للتأجير».

«قلت: لكنهم لا يملكون الإيجار».

«فأجاب: وهل مطلوب مني أن أوزع عليهم نقودا؟».

«ورويدا رويدا أبدأ في تفهم العقلية الأمريكية، والفهم الأمريكي».

«ورويدا رويدا أستشعر رغبة عارمة في الرحيل».

(١٨)

وعلى الجانب الآخر من الشعور بالغربة يروي الدكتور رفعت السعيد قصة محاولة جسورة قام بها أو اندفع إليها لاختراق المجتمع الأمريكي، لكنه يشعر في أثنائها بالغربة، ويشعر بعدها بالعزلة حين اكتشاف الحقيقة، ومن اللافت للنظر أن هذه الحقيقة تمثل حقيقة مهمة جدا من حقائق صراعنا مع الإسرائيليين ودعاواهم المتعددة من أجل إكساب اعتداءاتهم أبعادا تاريخية أو عقيدية من قبيل الحديث عن القبيلة العبرانية الثالثة عشرة:

«... فيما تمرق السيارة الفارحة في أحد الشوارع التالية للشارع رقم ١٤ في واشنطن (منذ اليوم الأول يحذرونك لا تتخطى الشارع ١٤ ، فالجريمة هناك دائمة ومتكررة، بل ومستمرة وبلا انقطاع، وربما بلا مبرر)، لمحت لافتة مكتوب عليها بالعربية «رابطة العبرانيين المسلمين» طلبت من مرافقتي التوقف، قالت: ممنوع، هذه منطقة خطيرة، ألححت وتوقفنا، الباب مفتوح، دخلنا، كلهم زنوج، جلايات بيضاء، طواقى، مسابح فى الأيدي، قلت: السلام عليكم، ردوا بعربية توحى بأنهم لا يعرفون سوى كلمة أو اثنتين، قدمت نفسى، وبدأت أستمع».

«إنهم مجموعة مريبة، ذات أفكار دينية تمزج فى دهاء بين اليهودية والإسلام، تقوم الفكرة الأساسية على أنهم سلالة القبيلة العبرانية الثالثة عشرة، والمعروفة تاريخيا باسم القبيلة التائهة أو المفقودة، وأن القبيلة تاهت من جموع اليهود المغادرين مصر مع موسى، واتجهت إلى النوبة، ثم اعتنق أبناؤها الإسلام».

«ثم دورة غريبة من شرح التعاليم الدينية، لا هى بالإسلام، ولا هى باليهودية، بين بين، وشوق غريب مصطنع للنوبة: أرض الأجداد، وربما أيضا أرض الميعاد».

«وأستشعر قدرا من الدهشة المتزجة بشكوك اعتادت أن تقفز خلال زيارتي الأمريكية، وجهت أسئلة فى العقيدة فاكشفت تليقا مفتعلا، ونفاد صبرى فى النقاش ربما مبعثه ضعف الحجة، وضعف المنطق، وعندما وصلت بهم إلى مآزق نقاشى انتزعتنى مرافقتى من يدي بعنف معتذرة بأننا على موعد مهم، ولم نكن على موعد، وفى السيارة لامتنى بشدة على نقاش محرج، فى مكان خطر، ومع أناس أشد خطرا من المكان».

.....  
.....

«ويبعدها بعدة سنوات تتكشف هذه المحاولة هنا فى أسوان عندما يأتى فوج منهم بحجة دراسة الحضارة النوبية، وبذات الادعاءات المتعدية، ويهدف الغوص فى العمق النوبى».

وبعد كل هذا التحفظ الشديد على الأمريكيين، وعلى جوانب مختلفة ومتعددة من تجربتهم التي دعوه للاطلاع عليها، فإن الدكتور رفعت السعيد يعبر عن سعادته أنه استطاع الثأر من الأمريكيين وأنه تركهم في اللحظة المناسبة دون أن يستمتع ببلادهم على نحو آخر:

«... كانت ملاحظات عديدة تتراكم، أكثرها تأثيرا هو الرغبة الملحة في التأثير فيك تأثيرا مخططا، ومبرمجا، ومعدا من قبل، دون أن يعطيك فرصة لحوار حقيقي، أو يعطيك فرصة لفهم الأوضاع، وتفهمها تفهما موضوعيا».

«وانتظرت حتى انتهت فترة المقابلات، والمناقشات، والندوات، أى ما يسمونه الشق الثقافى من الزيارة، ويتبقى أسبوعان للترفيه، زيارات لأجمل مناطق أمريكا: كاليفورنيا.. لوس أنجلوس.. إلخ».

«كان مسئول المشروع يمن علينا وهو يعلن اختتام الشق الثقافى قائلا: «تابعتم وتعبتم، تستحقون الآن الجائزة، أسبوعين من زيارات ممتعة»، كلمة جائزة أوجعتنى، ربما لأنه نطقها بترفع، ووجدتنى أقول: أنا معتذر، وأكتفى بالشق الثقافى، وأرجو ترتيب عودتى. صعق، وصمت، وقد كان».

«بعد عودتى زارنى المستشار السياسى للسفارة، كان مندهشا، سأل عن ملاحظاتى التى دفعتنى لقطع الرحلة، أجبت بصراحة».

«فى اليوم التالى مباشرة عاد ومعه سيدة من برنامج التبادل الثقافى (المستول عن سفرى) استمعت.. دونت.. وفيما كانا يغادران قال المستشار السياسى وهو يحاول أن يبدو مازحا: «حاولت أن أصطادك، فإذا بك توجه إلى طليقة قاتلة».

«ومادام أرادها أن تبدو كمزاح، فقد ضحكت.. واكتفيت بالضحك».

ومع هذا كله فإن رفعت السعيد يحدثنا بصدق شديد عن استمرار غربته مع

التوجهات العقلية التي تحكم سياسات العالم وتصرفاته، فيروى في مواضع عديدة كيف أتيح له أن يلم ببعض المعلومات المبكرة عن توجهات وخطط مستقبلية كان الغربيون (والأمريكيون على وجه التحديد) يعملون من خلالها، منذ مرحلة مبكرة، على إنهاء وجود التوجه السوفييتي في السياسة الدولية!! وقد جعلته هذه المعرفة محصنا ضد الاندهاش من الأحداث التالية عند وقوعها.

وعلى سبيل المثال فإنه يروى كيف أنه عرف مبكرا بما كان يخطط في الغرب لتداعي الاتحاد السوفييتي وإخفاء نفوذه من على الخريطة العالمية، وهو ينسب هذه المعرفة إلى الصحفي الفرنسي اللامع أريك رولو مشيرا إشارة ذات معنى!! إلى أنه مصرى قديم، وإن كان فرنسي الجنسية:

«... وتمضى سنوات عديدة، وتبقى ولم تزل قصة راسخة في ذهني لا أنساها، ولن أنساها، ولست أعتقد أن صاحبها قد نسيها».

«كان في المؤتمر (مصرى قديم هاجر إلى فرنسا ليصبح واحدا من ألمع الصحفيين، في أشهر جريدة فرنسية «لوموند» وليصبح فيما بعد دبلوماسيا بارزا)، ويحكم صداقة قديمة تحادثنا طويلا، وتعاون معي كثيرا في إنجاح المؤتمر، عندما تخطى دور الصحفي ليلعب دورا مؤثرا لإقناع الإسرائيليين بقول صياغات كانوا يتحسبون من قبولها».

«وطوال انهماكي في المؤتمر كان يقول: عايزك ضروري في حديث طويل، وأخيرا على العشاء جلسنا في مطعم منعزل».

«وفيما يوشك العشاء على الانتهاء فاجأني قائلا: سأحكى لك شيئا، أنا لم أصدقه لكنه حدث، عدنى فقط ألا تتلق به لأحد لأن تسريه سيبنى أنني سريته، وسوف يضرني هذا كثيرا في عملي الصحفي، وبدأ يحكى دون أن يتظر أن أعده، فقد كان بحاجة إلى أن يفضى لأحد بهذا السر الكبير، ففي بعض الأحيان يكون السر أكبر من أن تحجزه في صدرك».

«كان عائدا لتوه من أمريكا، هناك التقى سيسكو (مهندس السياسة الخارجية الأمريكية آنذاك)، تحدث سيسكو طويلا عن رؤية الأمريكيين لعالم جديد خال من

الحرب الباردة . كانت الثقة البالغة والمبالغ فيها تغلف كلماته وتقويماته ، وحاول أريك أن يلفت نظره إلى أنه ليس وحده في هذا العالم ، فاقتراده من يده إلى خريطة للعالم معلقة على حائط مكتبه ، نجوم حمراء متناثرة في شتى مساحات الخريطة : آسيا ، وأوروبا ، وإفريقيا ، وكوبا ، وكل نجمة تشير إلى بلد اشتراكي (أو يدعى أنه اشتراكي) ، أو كما قال سيسكو : تشير إلى منطقة نفوذ لل سوفيت .

«فجأة قال سيسكو باعتداد مذهل : سجل في أجندتك ، نحن الآن في بداية عام ١٩٧٣ ، وأحفر في ذاكرتك هذه المعلومة ، بعد عشر سنوات لن تكون هناك نجمة واحدة حمراء على هذه الخريطة» .

«إريك حكى الحكاية بلا اكتراث ، وأنا تلقيتها بلا اكتراث ، ولم أجد ما يبرر أن نتناقش في مثل هذه «الأكذوبة» أو هذا «الادعاء» ، لكنها بقيت مترسبة في أعماق ذاكرتي ، حتى كان الزلزال الذي أطاح بأغلب نجوم الخريطة ، فاستعدت الحكاية لتقفز فوقها أسئلة عديدة ، هل كان سيسكو جادا؟ وهل كان ثمة مخطط فعلا ، مخطط معد ومتقن ومحدد إلى هذا الحد؟ أم أنها المصادفة؟ على أية حال فإن حلم كابوس سيسكو لم يتأخر كثيرا عن الموعد الذي حدده» .

(٢١)

وفي خضم هذه الأحاديث المتصلة عن اغترابات متواصلة ومتعاقبة . . يحدثنا رفعت السعيد في بعض فقرات مذكراته بإنصاف شديد عن مجموعة من الذين يرى حقا لهم عليه أن يثنى على سلوكهم ، وعلى تاريخهم ، وعلى ما تبدي له من صفاتهم الرائعة التي وثقت علاقاتهم به .

ويأتي الأستاذ عبد الرحمن الخميسي في مقدمة هؤلاء ، وهو يحدثنا عن تجربته المبكرة في معرفته حين قدر له أن يلقاه وجها لوجه من دون أن يعرف أنه (وهو الكاتب الكبير المعروف) شيوعي منظم ومكلف بدور ، وقد أكبر رفعت السعيد في عبد الرحمن الخميسي أن يصبح شيوعيا وهو في قمة شهرته !! :

«في يوم من يوليو ١٩٥٣ تلقيت تعليمات أن أستأجر شقة جديدة ، ثم أن أذهب إلى

عنوان في الظاهر لأصطحب رفيقا هاربا من المعتقل (كان الهارب الرفيق ضياء بدر كسرت ساقه وهو يقفز أثناء عملية الهروب المثير من معتقل روض الفرج، وكان المطلوب أن أكفل له مكانا آمنا)، سعدت في العمارة الفخمة في الظاهر وأنا أستعيد كلمة السر التي بموجبها سأتسلم الرفيق الهارب، دقت الجرس، فتح الباب، انسكب على سيل من الدهشة بل الذهول، أمامي عبد الرحمن الخميسي أكبر كتّاب هذا الزمان. أي خطأ وقعت فيه؟ هل أخطأت في الشقة؟ كنت مرتبكا، وصغير السن، وأبدو حتى أصغر سنا من الحقيقة. تراجعت رأسى المرتبكة لترى رقم الشقة، تأكدت وجمعت أطراف إرادتي وقلت العبارة المضق عليها «خالي عندكم؟»، لاحظ ارتباكي ولم يغفر لي صغر سني، فزادني ارتباكا عندما سأل مبتسما: «خالك مين يا ابني؟»، سقط قلبي في أعماقي وأوشكت أن أنسحب جريا، لكنه سحبني بهدوء إلى الداخل لأجد «خالي» منتظرا في الصالون.

«ما الذي أتى بهذا الرجل إلى هذا المعتك؟ ضمت «حدثوا» كثيرا من المثقفين، لكن الخميسي كان الأكبر والأشهر، الجميع أتوا طلابا أو مبتدئين وكبروا في صفوفنا، أما هو فقد أصبح شيوعيا وهو في قمة شهرته.»  
«فكيف؟ ولماذا؟».

«وبقيت أسئلتى تحيرني حتى التقينا مرة أخرى.»

«في سجن مصر (في المكان الذي يحتلها الآن منزل كوبري السيدة عائشة وما يتلوه من مبان)، كنت الأصغر سنا، وكان (أي: عبد الرحمن الخميسي) الأكثر شهرة، وكانت زنزانه متدى لمن أراد حديثا طليا، وشجيا وممتعا.»

«صمت طويلا، ولم تزل الزنزانه تنتظر منه ما تبقى من أسطوره.»

«انفجر بأبيات من الشعر، دوختني فيما بعد كي أعثر عليها، ظللت أحتفظ بها مكتوبة لفترة، (وهل يمكن لسجين أن يحتفظ بشيء) وضاعت مني، لكن كلماتها الأخيرة كانت مطبوعة في ذاكرتي، وبها اهتديت إلى القصيدة الكاملة.»

علام أضحك يا ويلاه من زمنى  
لكنها ضحكة البركان قاذفة  
من قلسى النار أذكى أصلها الأكم  
إنى أقول لهذا الظلم فى صلف  
وشاطئى فوقه الأهوال ترتطم  
اشرب دمائى واثمل أيها النهم  
هيهات تبلغ إذلالى وتخضعنى  
إنى قوى عتى نائر بـرم

«وقبضوا عليه، فى السجن استدعوه لمقابلة عبد الناصر، عاد من المقابلة لم يقل لأحد شيئا».

(٢٢)

لكن رفعت السعيد سرعان ما يستطرد ويروى لنا ما حصل عليه من أسرار من خلال ثقة عبد الرحمن الخميسى به حين التقياً فى بغداد بعد أن كان عبد الناصر قد أصبح فى ذمة الله :

«بعدها وفى بغداد عندما التقينا هناك حكى لى :

«بدأ عبد الناصر معاتبا: مبسوط كده، أنت عملتها وقلبت الدنيا ضد الحركة، وتسببت فى إغلاق «المصرى»، وفى حشد الناس ضدنا. سأله الخميسى: لماذا فصلتني من «المصرى»؟ أجاب عبد الناصر: مش أنا. . السفارة الأمريكية هى التى طلبت، حمل رسالة السفارة الصحفى يوسف صباغ، وألح الأمريكان (ألح الخميسى وهو يحكى أن عبد الناصر لم يكن خاضعا للأمريكيين تماما، لكنها البرجماتية، لم لا يضحى بالخميسى ليرضى الأمريكين ولو برهة)».

«فى ختام المقابلة التى انتهت عاصفة قال عبد الناصر: أنت كنت عايز تقلب النظام».

«وصاح الخميسى: أنا كنت عايز أعدلہ، واعتبر عبد الناصر هذه العبارة هجوما لا يفتقر».

«ضحك الخميسي وهو يختم حكايته «هى جت كده . . أحيانا كلمات ما تصطحب معها ردها بشكل طبيعى»، وسأله عبد الناصر: عايز أى خدمة، فأجاب فى إياه «لا» .  
«لا» هذه كانت توجهه تماما، فأطفاله الصغار كانوا بلا مورد، وأحيانا بلا طعام، لكن الخميسي كان كما كان دوما «قوى عتى ناطر برم» .

(٢٣)

ويلخص رفعت السعيد حياة يوسف منصور صديق وجهاده من أجل الوطن على نحو غير مسبق، هو يروى هذه الحياة على لسان يوسف صديق نفسه، وإن كانت الصياغة تحتل تدخل رفعت السعيد فيها، ولنقرأ هذه الصياغة الموحية التى حرصت رفعت السعيد أن يبدأها بأبيات للجواهري كان يوسف صديق يتمثل بها على الدوام:

عدت الضبايح عليك عاوية      ظنا بأنك مأكّل جزر  
فلموتك فقال قائلها      إن الغضنفر لحمه مر

«هكذا كان يوسف صديق يهدر دوما بأبيات استعارها من «الجواهري» كلما حاولت يد البطش أن تتال منه، أو تبذل قصارى ما تستطيع كى تدفعه لتراجع . . أو بعض تراجع» .

«حكيت لكم حكايتى معه . . لكن حكايته مع الوطن تتألق فى زهو متجدد» .

«كان أبوه ضابطا فى الجيش، أدمن معركة الصراع ضد الإنجليز، لكنه رحل ويوسف بعد صغير، فتولى خاله تربيته، الخال (يوزياشى محمد توفيق) هو أيضا ناطر ضد الإنجليز، يستقبل من الجيش احتجاجا على تسلطهم على مقدراته» .

«على ذات الطريق يمضى . . يلتحق بالكلية الحربية بحثا عن ثأر أبيه وخاله، وثأر الوطن بأكمله، وفى عام ١٩٣٣ يتخرج ضابطا» .

«الضابط الشاب . . شاعر أيضا (إنه ميراث عائلى)، شعره يتفجر حماسة تلهب المشاعر الوطنية لزملائه الضباط إذ يدوى:

إننا وهبنا للجهاد نفوسا لا نبتغى رتبا ولا أطعاما  
والمؤمنون المخلصون يزيدهم ظلم الحوادث شدة وصراعا

«كان الجيش يغلى بالوطنية، ويصوغ يوسف غليانه شعرا:

عار الوظيفة أن نضام بها إذا كنا الرجال ولم نكن أتباعا  
ونفوس أهل الحق تأبى حرة وكريمة أن تشتري وتباعا

«بدأت (الحديث كما قلت ليوسف صديق) الاتصال بالإخوان المسلمين، لكنني انشقت عليهم لجمودهم العقائدي الذي لا يرضى ما أخذته على نفسي من ثورة، ولم يدم اتصالي بهم أكثر من شهور، ثم اتصلت بالشيوعيين في النصف الثاني من الأربعينيات، وكنت مقدرًا لدور الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، وكان اتصالي بأحمد حمروش ضابط المدفعية، وقد أعجبني في الشيوعية أنها تغرس حب العدل في النفوس، وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس، فهي لا تفرق بين الناس لأنسابهم، ولا أحسابهم، وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، ولم أشعر لحظة أن في تطبيق هذه المبادئ ما يتعارض مع عقيدتي الدينية، فقد داس الإسلام تيجان الأكامرة والأباطرة بأقدام الشعوب، وبعد اعتقال عديد من قيادات حدثو وصلت الأمور إلى الحد الذي كنت أكتب فيه المنشورات باليد في منزلي بثكنات الجيش في العباسية، وكانت زوجتي (علية توفيق) تشاركني في ذلك».

(٢٤)

ثم يصور رفعت السعيد دور يوسف صديق المبكر في حركة «حدثو» في ضوء الظروف القاسية في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩، حيث توالى ضربات البوليس، وتلاحقت، لتدمر كثيرا من آليات نشاط حدثو:

«... ولم يكن من مفر سوى اللجوء إلى الضابط يوسف صديق وزوجته ليقوما بطبع ما هو مطلوب من نشرات و منشورات، ويقول (أى يوسف صديق): «كنت أتأفف من روتينية العمل ومحدوديته، وطالما سألت «علية» فى ضيق: هى الثورة حتتعمل كده؟ وتبتسم لى مشجعة، وأبادلها الابتسام، ونكمل عملنا فى صبر وإصرار».

«وبدا يوسف صديق فى خوض صراع فكرى فى صفوف حدتو، كان يستبطن حركة الفعل السياسى والتنظيمى، وضعف ما هو متوقع من ثمار، وصعوبة توقع أى تغيير ثورى حاسم عبر مثل هذه الأدوات المحدودة الأثر والتأثير، ويقترح ويلج على ضرورة التحضير لفعل انقلابى عبر الجيش، وكانت حدتو ترفض».

«ويخوض يوسف صديق صراعه الفكرى، وربما لأول مرة فى التاريخ شعرا:

ضموا الأقلام وامتشقوا الحساما      فرب السيف قد حمل الوساما

وقولوا للبنى يرجو خلاصا      بتسيق الكلام كفى كلاما

ومن نادى بغير الجيش يهلى      وهن نور الحقيقة قد تعامى

«ويفوح العطر الثورى ليوسف صديق ليغمر مساحة واسعة، وتصل نسماته إلى جمال عبد الناصر».

«أذنا جمال عبد الناصر التقطنا أن يوسف صديق يعقد اجتماعات سرية لضباط فى الجيش فى منزله، وأن رجال الحرس الحديدى يراقبونه».

.....  
.....

ربما نتوقف هنا لنذكر القارئ بما يعرفه بالبداية من أن الفضل فى ذلك لم يكن لأذن جمال عبد الناصر بقدر ما كان لأنور السادات الذى راقب الحرس الحديدى ووظفه لمصلحة مشروع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

.....  
.....

ونعود إلى ما يرويه رفعت السعيد:

«وأرسل (أى عبد الناصر) إليه (أى إلى يوسف صديق) مَنْ يحذره، ثم أرسل إليه يدعوهُ للانضمام للضباط الأحرار، الضابط وحيد رمضان، وكان تلميذا ليوسف صديق فى الكلية الحربية، حمل رسالة عبد الناصر إليه، رد يوسف صديق كان سريعا وحاسما».

«والغريب أن عبد الناصر لم يعرف بحقيقة الانتماء التنظيمى والفكرى ليوسف صديق إلا بعد الثورة».

«وخلال لحظات الاستعداد الأخيرة ليوم الثورة كان يوسف كترًا مهما، كان الأعلى رتبة فى كل الضباط الأحرار بعد محمد نجيب (قائمقام)، وفوق هذا كان قائدا للكتيبة الأولى مدافع ماكينه، كتيبة بالعريش، لحسن الحظ صدر قرار بنقلها إلى القاهرة، حضر مع طلائعها للقاهرة، وبهذه الطلائع خاض معركة يوليو».

«عبد الناصر وعامر زاراه فى بيته يوم ٢٠ يوليو وجداه مريضا، صدره ينزف دما، قالا بأسف حزين سنفتلك، هو تذكر نأره القديم، وعشقه المتجدد، أكد أنه سيشترك معهم».

«مساء يوم الثورة حقنه الطبيب ليوقف النزيف، وانطلق بقواته».

«فى الطريق قابلهم قائد فرقته اللواء عبد الرحمن مكى، وأصدر له أمرا بالعودة إلى الثكنات. العسكريون لا يعصون أوامر القادة، لكنه ببساطة أشهر مسدسه فى وجه قائده قائلا فى حزم: أنت مقبوض عليك يا سيادة اللواء. . واصطحبه مقبوضا عليه».

«سألته فى حوارى معه: كيف فعلها؟ قال: لو ترددت لحظة لتردد الجميع وضاع كل شىء».

«ثم ألقت قواته القبض على شخصين يتطلعان فى دهشة إلى الطابور المتحرك وأمامه سيارة تحمل «بيرق» لواء، المقبوض عليهما: عبد الناصر وعامر».

ونأتى إلى فقرة ذكية يحصل فيها رفعت السعيد من يوسف صديق على حقيقة موقفه من رجال الثورة الذين غدروا به :

«سألته في ذات الحوار : ألم تفكر ساعتها في أن تستبقيهما أسرى، وتقود أنت الحركة؟ أجبني في غضب لا يخفى نفسه : نحن يا ابني ثوريون . . ولسنا أوغادا» .

«أفرج يوسف صديق عن الضابطين، ومنهما علم أن أمر الثورة قد اكتشف، وأن قادة الجيش يتجمعون في مبنى القيادة العامة لتحريك القوات الموالية للملك، في ثبات أكد : العجلة دارت، ولا مجال للتراجع، وإن كانوا في مبنى القيادة فلنذهب إليهم» .

«وذهب إليهم، أوقعهم في مصيبتهم، قبض عليهم جميعا، وعلى مكتب القائد العام جلس يوسف صديق ليدبر عملية الاستيلاء على السلطة، بعدها بساعات دخل عبد الناصر، ببساطة تحتاج إلى طاقة ثورية عالية وقف يوسف صديق ليجلسه مكانه، وهنا تكمن المفارقة كلها، فهم لم يحفظوها له، ولا تمسكوا بعهدهم كما تمسك، ولا أخلصوا له كما أخلص، حاولوا تطويعه، لكن «إن الغضنفر لحمه مر» .

«تصادموا معه وأثقلوا عليه، ثم طردوه وطارده «إن الغضنفر لحمه مر» .

«قبضوا على زوجته «علية» وألقوا بها في السجن، ثبتت كما ثبتت، ترفعت كما ترفع» .

«إن الغضنفر لحمه مر» .

«وكما اعتاد دوما فقد أدار صراعه مع عبد الناصر شعرا» .

«ومن السجن الحربى (١٩٥٤) حيث سجن، وكانت زوجته عليية هي أيضا في سجن النساء، كتب قصيدته الشهيرة التى أسماها «فرعون»، موجها كل غضبه ضد عبد الناصر :

ألا أيهنا الدهى اللعين      ألا أيهنا الشقى الحسرون  
لبست المسوح وضللتنا      ولما حكمت كشفت الفنون

«ويعاتبه على سجن زوجته ورجاله فى الجيش :

أعرضى يياح ويلقى به على ناظريك بقاع السجون  
وكل رجالى خلدت بهم أكل رجالى من للمجرمين

ثم يذكره بليلة يوليو وكيف قبض عليه هو وعبد الحكيم عامر :

وقد كنت يوم الوضى هاريا تخاف الظنون وتخشى العيون  
فقد كنت مختفيا فى ثياب (م) تباعد عنك مشار الظنون  
ولما وقعت وعبد الحكيم بأسر رجالى وما يعلمون  
فأنقذت وروحيكما من هلاك ورحت بنفسى الأقى المنون

«وبرغم تسرب هذه القصيدة من السجن الحربى وتوزيعها بكثرة على ضباط الجيش ، وربما بسبب ذلك ، وبسبب عدم رغبة عبد الناصر فى تصادم مفتوح مع أحد أبطال يوليو ، أفرج عنه» .

«ويظل يوسف صديق شوكة فى حلقهم ، يحترمونه ، يقدرونه أحيانا يذكرون له دوره الشجاع والأساس فى إنجاح الثورة ، لكنهم قط لم يستطيعوا ابتلاعه» .

(٢٧)

أما خالد محيى الدين فيحظى بأروع صور تقدير رفعت السعيد وأبلغ العبارات الدالة على هذا التقدير ، وربما لا نجد فى أدبياتنا السياسية كلها مثل هذه العبارات الممتنة من صديق لصديق أكبر منه ، أو فلنقل من مرید لشيخه :

«كانت معرفتى بخالد محيى الدين بداية لحياة جديدة ، تتراكم فيها دروس خالد محيى الدين فتصبح منهجا وأسلوب حياة» .

«وأحاول أن أكون جديرا بالانتساب تلميذا فى مدرسته ، بجهد جهيد أحاول دون أن أرتقى ، مهما حاولت ، إلى مرتبة الأستاذ ، مكتفيا بشرف الانتساب إلى الأستاذ» .

.....  
.....

«نظر إلى غاضبا في تواضع عندما أصدرت كتابا عزيزا على قلبي «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٥٠-١٩٥٢» ورصعته بإهداء (لعله كان إهداء لنفسى أكثر منه إهداء له) يقول: «إلى خالد محيي الدين . . أخا وصديقا وأستاذا».

«قال: أخا وصديقا نعم، أما أستاذا هذه فلا ميرر لها».

«ولعله نسي أنه ظل ولم يزل أستاذا ليس لى وحدى، وإنما لجليل كامل من الرجال، كل منهم يحاول أن يكون بالنسبة له مريدا مؤتما به».

«ولن أحاول هنا أن أحكى حكايتى معه، لا كلها، ولا حتى بعض منها، فلا هذا ممكن، ولا هو سهل، فكيف لحياة امتدت بلا انقطاع من عام ١٩٦٤ وحتى الآن أن تروى هكذا ببساطة فى صفحات، وكيف لعلاقة تمثل بالنسبة لى الشيء الأكثر أهمية أن تختزل فى أسطر، أو حتى فى عدة كتب».

«لن أحاول، فلا هذا ممكن، ولا هو مطلوب، أريد فقط أن أقول إن يدي خالد محيي الدين قد تلفتتا قطعة صلصال خارجة لتوها من السجن، لتعمل وباهتمام على صياغتها، أو بالدقة إعادة صياغتها لتتلاءم مع الحياة، ولتصبح قادرة على تحدى هذه الحياة».

«ذلك النوع من التحدى الصامد والهادئ الثابت والمبتسم الذى أتقن خالد محيي الدين فنونه».

«لن أطيل . . أقول فقط ببساطة: هاكم صفحات كتابى».

«كل جملة كاملة فيه، وكل سطر حسن هو بصمة لخالد محيي الدين، وما هو غير حسن فهو منسوب إلى استعصائى على ما حاول من تصوير وتعليم».

«ومدى الحياة . . وما بعدالحياة سأظل لخالد محيي الدين ممتنا، ومؤتما به».

«وسأظل دوما مستظلا ظليل صداقة راهن الكثيرون على فصمها دون جدوى، فهى فوق كل نوازع الانفصام».

«وسأظل مدى الحياة مستمتعا برحيق أخوة ذات غلاف وثيق، وحنان دافق، وقدرة دائمة على التجدد، والتلاؤم، والفهم المتبادل، حتى دون حديث مباشر».

«إنها علاقة لا تتكرر».

«لأن خالد محيي الدين رجل لا يتكرر».

(٢٨)

ومن بين الأوروبيين جميعا يتحدث الدكتور رفعت السعيد أيضا عن أستاذه الألماني راتمان حديثا حافلا بالحب والحرارة، لكنه مع هذا لا يخلو من ملامح حديث صاحب المذكرات نفسه عن غربته:

.....  
.....

«على يديه تعلمت فنون الكتابة الأكاديمية، والبحث والدراسة، وبتشجيع منه بدأت هذه الرحلة المضنية لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، أشعر دوما أنني مدين له بدين لا يمكن الوفاء به».

«كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب، مستشرقا مرموقا عالميا، صعد في السلم الأكاديمي حتى أصبح عميدا للجامعة، وهو منصب مرموق جدا».

«كان يتحمس كثيرا عندما يتحدث في التاريخ، أما عندما يأتي إلى السياسة يتأنى . . يهدأ، ولا يبالغ، إلى درجة أن البعض من رفاقه كانوا يتشككون في مدى حماسه للماركسية، لكنه كان ماركسيا رائعا».

(٢٩)

وسرعان ما ينتقل رفعت السعيد إلى الحديث عن جوهر موقف راتمان المفكر الماركسي حين وقعت الواقعة وسقط حائط برلين وانتهى الاتحاد السوفيتي:

«وعندما وقع الزلزال كنت حريصا على أن أعرف ماذا فعل».

«زارني جلود الصديق القديم، ترك وزارة الخارجية، أو بالدقة فُصل، لأنه صمم أن يواصل عضويته في الحزب، سألته أول ما سألت عن راتمان، قال بحزن: ترك كل شيء، انزوى في بيته، وحملته رسالة عتاب، كيف تترك رفاقك في هذا الزمن الصعب؟».

«بعد فترة جاءني الرد:

«أعترف بالخطأ، لكنني لا أستطيع، وضعي مختلف، كنت مسئولاً، كنت عضواً في القيادة، وكنت مدرساً فأستأذا فعميدا للجامعة، فإذا كانت هناك ثمة خديعة فأنا أكثر من ردد هذه الخدعة، ضميري غير مرتاح، عياني لا تتجاسران على الالتقاء بعيني ابنتي، لم أزل عاجزاً عن أن أقدم لها إجابة مقنعة، تفسر كل ما كان، وتبرر كل ما قلنا وكل ما فعلنا، فإذا كنت لا أستطيع أن أواجه ابنتي، فكيف تطلب مني أن أواجه الناس، لست منكراً الشيء، فقط أنا لا أستطيع، فاعذرنى».

.....

على هذا النحو أنهى رفعت السعيد هذه الفقرة، وقد كان جديراً به أن يختم بهذه الفقرة نفسها الجزء الثاني من مذكراته أو كتابه كله، لكن رفعت السعيد لحسن الحظ كان قادراً على أن يواجه الناس، وأن يقدم لهم أشياء جميلة أخرى، منها هذه المذكرات.

\*\*\*